

التوبة.. أبرز مظاهر رحمة الله بعباده



«إن» من أبرز مظاهر رحمة الله بعباده، أزمه فتح لهم الباب واسعاً للتوبة والعودة إليه مهما كبرت ذنوبهم وكثرت، وفي أي وقت وفي أي مكان. هو حاضر لقبول توبتهم بدون أي واسطة، بل هو سبحانه حتى لم يسمح لهم باليأس والقنوط من رحمته، إذ أمر رسوله أن يبلغ الناس: (نَبِّئْ عِبَادِي أَزْيَ أَزَّا الْفَفُورُ الرَّحِيمُ) (الحجر/ 49)، (قُلْ يَا عِبَادِي إِذْ يَأْسُرَفُوا عَلَى أَزْفُسْهُمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ حَمِيعًا) (الزمر/ 53).

وقد ورد في حديث قدسي: «يا بن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك. يا بن آدم، لو لقيتني بتراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأننيك بتراها مغفرة». ولا تقف حدود كرم الله عند ذلك، بل أعلن سبحانه أزمه لا يكتفي بغفران الذنوب، بل هو يحب التوابين ويحب المتطرهرين.

وفي موضوع التوبة، ربما يسأل البعض: ألا يستدعي تشريع التوبة والدعوة إليها، إغراء للعبد بالمعصية، لكون الإنسان إذا أيقن أن الله سبحانه وتعالى يقبل توبته رغم اقترافه المعاشي، فسيزيد ذلك من جرأته على ارتكاب المحرمات والانهماك في الذنوب، وسيدفعه ذلك إلى التماادي في المعاشي. طبعاً الأمر وارد أن يتصرف ضعاف النفوس ومن غيرهم الدنيا بهذه الطريقة، لكن لعبيتهم ستكون مكشوفة، فالأمور مرهونة عند الله بالنيات وليس بالأقوال. وأذكر هنا ونحن في شهر رمضان، نموذجاً لهذه اللعبة المكشوفة، لعبة المجرم عمر بن سعد الذي حاول استغلال فكرة التوبة كي يشرع لنفسه ولآخرين خياره الدموي، قائلاً يومها بعد أن عرض عليه ابن زياد قيادة الجيش لمقاتلة ابن بنت رسول

أ ترك ملك الرّي والرّي منيتي

وإنَّ إِلَهُ الْعَرْشِ يغفر زلَّتِي

يقولون إنَّ إِنَّ خالق جذَّةٍ

فإن صدقوا فيما يقولون فإِنَّنِي

هنا الحجَّةُ واهية، ولم يكن هذا الطاغية في موقع مَنْ يتوب إِنَّ عليه.

عليينا أن ننظر إلى مفهوم التوبة في سياق الرحمة الإلهية، فالغفران والمَّغْفِلَةُ عن الذنب لا يحصلان إِلا لأنَّ رحمة إِنَّ وسعت كلَّ شيء، وهو الذي سبقت رحمته غضبه.

إِنَّها رحمة خالصة بالعبد، وهي حماية له، على عكس ممَّا يتصوَّر البعض. الباب المفتوح من إِنَّ يعطي أملاً لل العاصي كي يتوب ويتراءع. أمَّا الباب الموصى، فإنَّه يدفع العاصي إلى التمايِّز.. فكم وكم من الشباب عادوا إلى رحاب إِنَّ لاعتقادهم وإيمانهم بأنَّ إِنَّ يقبل توبتهم مهما عظمت وكبرت!

وهذا ما تُشير إليه الآية: (وَإِنْ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَإِنْ يُرِيدُ إِلَّا ذَرَّتِينَ يَتَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمْرِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) (الذِّسَاء / 27).. إذاً التوبة تمثِّل علاجاً بقدر ما تمثِّل إسقاطاً للماضي.

كيف تتحقّق التوبة؟!

ولكن كيف تتحقّق التوبة؛ هل يكتفي إِنَّ من عباده بأن يعلنوا التوبة حتى يحظوا بها؟ نعم، باب التوبة مفتوح لمن يريد، لكنَّ لذلك مقدِّمات ذاتية.

أولاً لها الاعتراف وترك المكابرة، بأن يؤكِّد المرء لنفسه أنَّه عصى إِنَّ، وأنَّه أساء في علاقته معه، ثمَّ يندم ويستنكر فعلته، ويشعر بأنَّه ما كان ينبغي أن يُبادل إِنَّ بالعصيان.

وبعدها، عليه أن يصلح ما بدر منه وما اقترفته يداه تجاه الخالق وتجاه المخلوق.

وهنا نذكر حدِيثاً ورد عن الإمام عليٍّ (ع)، عندما سَمِعَ رجلاً بحضوره يتحدَّث عن التوبة، فحدَّد له الإمام آليَّات التوبة:

1- الندم على ما مضى.

2- العزم على ترك العود إليه أبداً.

3- أن تؤدِّي إلى المخلوقين حقَّهم حتى تلقى إِنَّ أملس ليس عليك تبعه.

4 - أن تعمد إلى كلٍّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدي حقّها .

5 - أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية .

والتبوية حتى تكون شاملةً، لابدّ من أن لا تقف عند حدود الذنوب المتعارفة مما اعتدناه من ترك الواجبات والإتيان بالمحرّمات، بل تشتمل أيضاً التعمير في أداء المسؤوليات العامة، ومن النماذج، ما ورد عن الإمام زين العابدين (ع) في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْذُرُ إِلَيْكَ مِنْ مُظْلَمَةِ بَحَضَرَتِي فِيمَا أَنْصَرْتَهُ، وَمِنْ مُسْبِعِ اعْتَذَرَ إِلَيْكَ فِيمَا أَعْذَرْتَهُ، وَمِنْ ذِي فَاقَةِ سَأَلَنَّكَ فِيمَا أَوْثَرْتَهُ، وَمِنْ حَقِّ ذِي فَاقَةِ لَزَرْمَذِي لِمَؤْمَنٍ فِيمَا أَوْفَرْتَهُ، وَمِنْ عَيْبِ مُؤْمَنٍ ظَاهَرَ لِي فِيمَا أَسْتُرْتَهُ».

دعاء يُسلّحك بحساسية مفرطة تجاه الذنوب والمعاصي، ويتجاوز موضوع الفرائض والعبادات إلى المعاملات.

المسارعة إلى التوبة

إنّا اليوم أحوج ما نكون إلى هذه المراجعة الدائمة لمسار حياتنا، إذ تواجهنا التحدّيات من كلّ حدبٍ وصوب: أوّلها من أنفسنا الأمّارة بالسوء تستمدّ قوّتها من شيطان خبيث، وتتغذّى من كلّ الأجواء التي تحيط بنا وتغرينا بمعصية الله. ولهذا، علينا أن نكون واعين، وأن لا نكفّ عن استعمال سلاح التوبة الذي منحه الله لنا، فهو سلاح قادر على أن يغلق ملفّ المعصية ويمحو آثارها. انظروا إلى هذا الحديث الذي يفيض رحمةً، قال أمير المؤمنين (ع): «مَنْ تابَ.. تابَ اللهُ عَلَيْهِ، وأمر جوارحه أن تستر عليه، وبقاع الأرض أن تكتم عليه، وأنسيت الحفظة ما كانت تكتبه عليه».

فلنفتح قلوبنا على الله بعد أن فتح الله أبوابه لنا، ولنلتج التوبة من با بها الواسع، فلا نغلقه على أنفسنا، ولنسارع إليها، فما وعدَ الذين يسارعون إليه بالتوبة، فيما لن يقبل أولئك الذين ينتظرون مجيء الموت وتبشيره حتى يتذكّرُوا أن يتوبوا، هؤلاء لن يحظوا بذلك. لقد قالها الله تعالى صريحةً: (إِنَّمَا التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِرَجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرْبَيِ فَأُولَئِكَ يَتُوبُونَ إِلَيْهِمْ وَكَانَ إِلَيْهِمْ حَكِيمًا * وَلَيُسَتَّ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ فَتَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلَا إِلَّاذِينَ يَمْوِتونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (النّساء / 17-18).

فما دام في العمر بقيّة، فلننادر ولنفتّم الفرصة (إِنَّمَا يُحِبُّ التَّوْابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (البقرة / 222). ▶